الخاتمة

فتحت المدارس، فأخذت نورا لأوصلها إلى مدرستها، وكانت الشوارع طافحة بصور داليا، التي فقدت حياتها بحادثة سير. قالت نورا: هذه الساحرة التي عانينا منها الكثير كيف يبجلونها؟

- لا يا نورا، لنطلب الرحمة للأموات فلا نعلم مكانتهم عند الله.

ذكرت ذلك اليوم الذي دخلت فيه داليا مكتبي وعانقتني:

- سأذهب إلى باريس وأرى وسيم، ما هي أخباره؟

- إنه مجتهد ويكسب حب رفاقه ومعلميه، وانتمى إلى فريق كرة السلة.

كانت ذاهبة مع فريق المرشحات لمسابقة انتخاب ملكة جمال لبنان وتحرجها عودة وسيم الذي رفض البقاء مع والده بالرغم من كل ما أحاطه به من حنان. وذكرت لي يومها كيف عاد الأمير مشعل وعقد على أخت غانم هجرس بعد أن دفع مهرها مليوني ريال.

قالت داليا يومذاك لزوجها: - لماذا أعيش معك؟ أنا قادرة على كسب المال بجمالي وحده، عروض كثيرة تعرض على العمل في السينما، عندما لا أستطيع أن أنجب الولد الذي يحميني في شيخوختي! فهل تكدس أموالك ليسرقها ابن أخيك النجس ونسله، بعد أن حرمني الإنجاب؟

فكتب لها هذه الوصية التي تملّكها من نصف ثروته، بالإضافة إلى ملكية البيت.

أذكر حينذاك وسيم وهو يقلب صفحات المجلة التي وصلت إلى البيت وقرأ فيها أن داليا كانت زوجة النائب غانم هجرس فقال لي:

- أرجوك تانت نبيلة لا تخبري نورا أنني ابن داليا لأنها لا تحبها. فكرت فيها طوال ليلة البارحة، ولا أستطيع أن أغفر لها أنها تركتني وأنا رضيع.

- لا تلمها يا وسيم! كانت ظروفها قاسية لا ترحم.

- كيف لا ألومها وقد تخلت عني؟ أغفر لوالدي لأنه لم يعلم بوجودي، ولكنني لا أغفر لها أنها تركتني لتتزوج غير أبي.

- المجتمع عندنا لا يرحم المرأة التي تنجب طفلاً من رجل أحبته مهما كان حبها صادقاً، إن لم يكن موثقاً بزواج شرعي.

- وهل أنا ابن غير شرعي لداليا؟

- لا، لقد قام والدي بتوثيقه نيابة عن أخي كريم، وأنت مسجل في دائرة النفوس بأنك ابن داليا ديب وكريم عباد منذ يوم ولادتك، وهذه الوثيقة كان يحتفظ بها والدي وهي التي أقنعت داليا أن الصبي الذي تحتجزه ليس ابنها، أما ابنها فهو في مشفى الأطفال في باريس، واسمه وسيم، تماماً كما اتفقت ووالدي على تسميتك.

- لماذا لم تخبرني الحقيقة يوم زارتني في باريس؟

- خشيت من ردود فعلك. وعبد الرحمن نصحها بالكتمان لأنه ليس مستعداً أن يسلمك حتى لأبيك من أجل استقرارك النفسي، فكيف يتركك لزوج أم سيء السمعة، كاره لآل عباد، كغانم هجرس، لينكل بك؟

- لماذا تزوجته إذن؟

- بلفها، هو ابن ضيعتها وكموظف في الجوازات اضطلع على وضعها وأقنعها أن ابن عباد لن يستقبلها في أميركا بالترحاب

وأنها ستضيع هناك مع طفلها، وأنه سيحميها ويتستر عليها. وقعت في شباك رجل رهيب، يقترف الموبقات، عقيم تزوج ثلاث مرات دون أن تكون له ذرية، هيمن عليها سنوات يضطهدها ويقسرها على الحياة معه رغم نفورها منه.

أعود إلى مشعل شقيق الأمير الراحل وعم نورا، عندما طلبت منه حين جاء يعزيني باسم عائلته أن لا يذكر شيئاً أمام نورا التي كانت تحب والدها كثيراً ولا أريد لها شعور اليتم في هذه السن، ولقد طلب رؤيتها فقلت له:

- إنها تتناول غذاءها وبعد قليل لديها درس في الموسيقى وستأتي معلمتها لتدريبها.

قال: - ما حاجتها للموسيقى؟

أجبت: - لأن الموسيقى بلسم للقلوب الجريحة، وهي تحبها. ألديك مانع؟

قال: - طبعاً، أنا وليّ أمرها، جئت لأصطحبها إلى السعودية!

- أليس لديها أم تربيها؟ أم تظن بأن نساءك الجاهلات أجدر مني بتربيتها؟

- في أسرتنا عليها أن تتعود من صغرها على التقاليد الإسلامية والأسرية.

- وما هي تقاليد أسرتك؟

أجاب: - أن تتزوج ضمن أسرتها.

قلت: - أهذا ما تسميه تقاليد إسلامية؟

- نعم إنه من صميم الإسلام، وإلا فإنها لا ترث أباها.

- اسمع، إنك لا تخاطب امرأة جاهلة، أنا محامية، أعرف الشرائع كلها من عهد حمورابي وما جاء في الأديان فيما يختص بالإرث وحقوق الزوجة والأبناء والبنات والأعمام. فهل جئت تعلمني ما أعلمه، وتفرض علي شريعة أسرية فوق شريعة القرآن؟

قال: - من حق الأسرة المالكة أن يكون لها شريعة خاصة بها لتحافظ على قوتها وثروتها.

جن جنوني: - منذ متى تعرف أسرتك أجدادها فتشترع لنفسها؟ لتحافظ على ثروتها! أ باحتكارها للثروة النفطية التي هي ملك الأمة العربية؟

سافر كريم مع أسماء ووسيم وجلال ليلتحق بأسرته في نيويورك وشعرت وابنتي بالوحدة. وكان هذا الشعور يهصرني، فكنت أدعو والد أسماء أيام الجمعة بعد أن أوصل نورا إلى مدرستها ليتغذى معنا، فهو الخبير بتاريخ كل شخصيات وأحداث قصتي. فعلى يديه ولد وسيم، وهو يعرف كل ما يتعلق بداليا وأسرتها، وغانم هجرس وجرائمه، وهو الذي ينقل إلي ما يجري في الضيعة من أحداث بعد موت داليا، وأنا أخبرته أن الشرطة استجوبت داليا في ساعاتها الأخيرة قبل أن تفقد وعيها. وكانت تعرف من لحق بها وصدم سيارتها. إنه ابن أخي هجرس الذي قام بالعملية التي أفقدتها القدرة على الإنجاب. أجد المتعة والجلاء في أحداث سابقة أحب أن أعرف تفاصيلها من والد أسماء.

جاءني الغيث والبشرى في رسالة بعثتها أسماء إلى والدها تقول فيها عن كريم: - إن حظي كان مشرقاً في الزواج من هذا الرجل الذي يتدبر أموره بشكل عبقري. بعد ليلة من الإقامة في فندق قريب من منزل زوجته الأميركية، اتصل بها وعرف منها أحوالها، وأن والدها الذي كان نقيباً لأطباء المنطقة، ترك لها منزلاً بعد وفاته، كالقصر لا تعرف كيف تسكنه وولديها. دعته للنزول في ضيافتها، فما كان منه إلا أن أخذنا إليها لنشاطرها سكناها. واستقبلتنا بترحاب كبير خصوصاً أنها عرفت عني أني طبيبة درست الطب في جامعة بوسطن، وأتقن اللغة الإنجليزية. وكم كانت لهفتها مثيرة على طفلي جلال، حضنته وهي تغمره بقبلاتها:

- كم سيفرح ولديّ حين يعرفان أن لهم أخاً ثالثاً من والدهم. ولمحت وسيم وسألتني: - أهو أخوك الصغير أم ابنك من زواج سابق؟

فقلت لها: - بل هو ابن كريم من زواج سابق.

فقالت: - آه، أنتم المسلمون تعددون الزوجات! لم يحدثني عنه حين طلب يدي.

فقلت: - إنه لم يكن يدري به حتى جاء لبنان.

كان كريم غائباً لينقل حقائبنا من الفندق إلى ذلك البيت الكبير، ولقد كان لدي من الوقت ما أستطيع أن أحدثها به بكل ظروفه العصيبة وعندما علمت بإعاقته تعاطفت معه كثيراً وأصبح أكثر أبناء كريم مركزاً لاهتمامها. وفي تلك الليلة كنا نخطط للمستقبل، في أن نجعل ذلك القصر مستشفى يحمل اسم ذلك الوالد المشهور ونعمل فيه نحن الثلاثة، ونوظف فيه أطباء يحملون جميع الاختصاصات ويكون مجالاً لأبناء كريم أن يختاروا مهنة الطب منذ انتهائهم من المرحلة التحضيرية.

وقد غادرتهم لأرضع جلال، وذهب معي وسيم لينام، وسمعته يبربر خلال حلمه: - ليتك يا نورا لا تعلمين أبداً أن داليا هي والدتي، وعمي كريم هو أبي!

*****

أذكر كيف رقصت نورا فرحاً يوم ذهبنا إلى المطار لاستقبال وسيم، وكيف وقفت أمام المرآة تجرب أثوابها واحداً بعد الآخر، فقلت لها:

- مهلاً نحن لا نذهب إلى حفلة عيد ميلاد!

وكيف امتعضت وأصرت على أن تلبس ثوبها الأبيض المكشكش، الذي اشتريته لها في عيد ميلادها، وكيف قبلها فلمست خدها. كانت أول قبلة تلمس بشرتها الملوحة من فتى في جيلها، فلكزني جهاد:

- أرأيت عمتي؟ أرأيت ما فعل؟

كان جهاد يبهرها بتفوقه عليها في الحساب والسباحة ونشاط الصبيان فخسرها، وتعلقت بقبلة مجاملة من وسيم.

خلب وسيم قلب نورا بفصاحته ودماثته، ولغته الفرنسية الطليقة. وكان سيمضي فترة الصيف عند العم كريم، فتنفس جهاد الصعداء.

يقول لي: - كيف يفعل وسيم ذلك مع نورا، ألا يخجل؟ ويتابع: - تسأله نورا ألديك رفيقة؟ فيجيبها: - "رفيقات" وكلنا نتباوس، إنهن رفيقاتي، إنهن أخواتي! كيف يحدث ذلك هناك، ألا يخجلون؟

أسأله: - أتحب نورا؟

فيجيب: - نعم ولكنها لا تحبني، إنها تصغي إليه كأنه بلبل يغرد. لقد سلبني وسيم حب الجميع، أبي وعمي كريم وخالتي أسماء وحتى نورا!

تصلني رسالة من أسماء تخبرني كيف تحوّل القصر الذي نزلوا فيه إلى مشفى، وكيف انتقلوا إلى بناء مجاور اشترى كريم طابقه الأرضي وفيه شقتان متسعتان واحدة لسكناها وكريم وجلال ووسيم، والثانية لزوجة كريم الأميركية وولديها، وكيف أبت الزوجة الأميركية أن تمارس العلاقة الزوجية معه، لكنها نقلت إلى الشقتين كل محتويات القصر. كانت علاقة أبناء كريم مع بعضهم على ما يرام، وكان وسيم الذي يتقن اللغة الفرنسية سريعاً في تعلم اللغة الإنجليزية، وأسماء تدرّسه اللغة وتساعده في وظائفه المنزلية وتجعله قادراً على اللحاق بأخويه وزملائه في المدرسة التي يذهبون إليها ثلاثتهم معاً في نفس الصف. وكانت معلوماته الأخرى أنضج من معلومات أخويه الأميركيين، حتى أن وضعه كان متميزاً وجعلهما يقدرانه ويتعاطفان معه ومع

قضايا بلده. أما جلال فكان يرضع مع ثديي أمه حب الجميع وتدليلهم حتى لتخشى عليه من كثرة ما يغمرونه من حب وعطف ودلال، وقد حذرت الجميع من تقبيله خشية أن ينقلوا إليه عدوى الرشح الذي يلتقطونه من مدرستهم.

إنها أسماء التي عرفتها وكانت نعم الزوجة لكريم.

تشغل بالي كثيراً قضية الوصية الأخيرة، التي تملّك داليا فيها وسيم منزلها ونصف ثروة غانم، لو دري بها ابن أخي غانم الذي قام بالقضاء عليها حتى يرث ثروة عمه، وهو لا يدري بأنها أوصت بها إلى وسيم. هذه الوصية هي في درج مكتبي، وهي مفتاح للأسرار المتعلقة بأين يودع غانم هجرس أمواله. وأذكر يوم زارني ريمون وأخبرني أن أخي هشام، في رسالة إليه، أخبره بأنه لم يعثر في دليل نيويورك أومصارفها على اسم ذلك الرجل الذي أعطيته إياه، وإلا لاستطاع محامي المرحوم زوجي أن يدين غانم بحرق المصرف، فقلت له:

- لعل هذا الرجل يفتح مصرفه الخاص في غير مدينة نيويورك.

فعلّق: - معك حق. وصلني في رسالة من صديق يعمل في المصارف أنه يوجد في بوسطن مصرف خاص يتعامل مع الممنوعات في العالم الثالث ويروّجها، سأتقصى الأمر حين أسافر هناك، فأنا من أهل بوسطن ولي فيها كثير من الأصدقاء، حتى أنني أدير مطعماً لبنانياً أسلمته إلى أم جولييت، فلعلي أكون ذا فائدة لزوجك وأخيك فنجد الخيط الذي يربط غانم بهذه الشبكة.

قلت: - إن غانم لم يقم بحرق المصرف إلا بعد أن جرّده من مليارات الدولارات، فأين يخبئ الأموال؟ إن الرجل الذي أعطيتك اسمه هو من أقدم المتعاونين معه وهو الذي مول حملته الانتخابية.

ثم ذكرت دردشة مع أسماء حين أخبرتني عن المهاجر اللبناني الذي وجد مقتولاً في الأرض التي استولى غانم هجرس عليها. إنه ابن فريد بك الذي أرسلها إلى جامعة بوسطن لدراسة الطب. وكان ابنه في نفس جامعتها في قسم الزراعة وودعها قبل سفره. كان راغباً في تطوير زراعة التفاح بالوسائل الحديثة، فجرى له ما جرى. وتطرق يومها حديثنا إلى داليا. قالت أسماء لي:

- إن قريب غانم، الذي عرفته بنفسك يسرق الأدوية الفعالة ويبدلها بأدوية مغشوشة رخيصة لا تفي بالغرض ولا تنقذ المريض، لا يتورع عن فعل ما فعل بداليا. كانت له فرصة جيدة ليرث الملايين. أنا زرت معها الطبيب الذي قام بتحليل الخزعة من الكتلة الدهنية التي كانت تضايقها فوجدها غير خبيثة، وتقريره موجود في المشفى، وهو الذي قام بتحليل المبيضين بعد الاستئصال فوجدهما سليمين!

قلت لأسماء: -أردت أن توكّلني في قضيتها فأبت. تخاف من غانم. وتخاف من أخويها شريكي غانم. والدك يعرف بتلك الشركة الثلاثية بينهم، وداليا تعرف أشياء خطيرة. تورّطت وحدثتني عن المشاجرة التي قامت بينها وبين غانم. دافع عن قريبه، ودافع عن نفسه بأنه لم يحرق المصرف، وكانت في حالة غضب فقالت له: "- قد لا تكون بنفسك بل بيد أعوانك". ليس مستبعداً أنه استعان بأخويها في تنفيذ المهمة بينما كان مسافراً إلى الجنوب يوم الحادث!

تنفك عقدة جهينة بسفر وسيم مع والده كريم وتلتحق بعبد الرحمن في باريس حيث تكون أماً ثانية لجهاد وعوناً كبيراً لعبد الرحمن حتى ينتهي من دراساته العليا في الحقوق. لقد كان وجود وسيم مع عبد الرحمن يجعلها تتردد في أن لا تستطيع إنصافه وهي تعلم أنه ابن داليا وكريم الذي كان حبها الأول. وكانت تدرّس جهاد اللغة الإنجليزية التي انتشرت في مدارس لبنان بعد انحسار الاستعمار الفرنسي ويزودها بدوره بمواقف الدول العالمية وسياساتها الخارجية. ثم يعود الجميع إلى لبنان، ويعيشون في منزل والدي، وكان مغلقاً منذ مقتل زوجي. وأصبحت جهينة شريكة عبد الرحمن في عدائه لغانم هجرس تحتفظ بالأسرار التي تدينه بجرائم الاغتيال التي يقوم بها دون أن تطاله يد القانون، وكان مكتبي هو المكان الذي تمارس فيه عملها الصحفي في المنظمة، وتنتمي إلى جميع القوى المحررة القانونية والعسكرية في محاربة إسرائيل. لقد كان مجيئها إلى لبنان بلسماً لجروحي وإحساسي بالوحدة القاتلة وأنا أخفي كل الأسرار التي تتعلق بموت والد نورا، واشتركت معها في النشاطات النسائية التي تريد تحييد لبنان من الممارسات التي تجعل سوريا وصية عليها.

كانت تتعاطف مع جهاد في حبه لنورا، وقد نال المهارات التي يتفوق فيها عليها، ولكن نورا كانت تتجاهله، فلقد كانت وفية لوسيم تراسله وترغب في أن تمارس الطب مثله بعد انتهائها من المرحلة الإعدادية، قبل أن تعرف أن والدته هي داليا وأباه هو كريم. وحين كانت تلوم نورا على تفضيلها وسيم على جهاد، أقول لها: يا جهينة نحن الأمهات لا نستطيع أن نسيطر على بناتنا في اختيار هوى قلوبهن.

وصلتني رسالة من أسماء بعد مرور عامين من الأحداث تخبرني فيها أن ريمون زار المستشفى ليقوم باللقاح الرباعي لابنته لوسيا وفوجئ هناك بأسماء وكريم اللذين حضر عرسهما في لبنان. وأسلم ريمون إلى أسماء، حين علم أنها درست الطب في جامعة بوسطن، صحة ابنته بالرغم أنها ليست طبيبة أطفال. وكانت لوسيا تأتي وتلعب مع جلال، ولقد استهوته بعينيها الزرقاوين الجميلتين. وكان جلال الذي يصغرها بعام، ينمو قوياً، يقارب طوله طولها حتى كأنهما توأم، ويلاحقها وهي تدور في أنحاء المنزل الذي زارهم ريمون فيه. قالت جولييت لأسماء بأنها ستزور أهلها في بوسطن حيث يفتح ريمون مطعماً للمأكولات اللبنانية تشرف عليه والدتها وأختها، وأن أهلها سوف يسعدون بمشاهدة لوسيا حفيدتهم الغالية، وأضافت بأنها ترغب في أن تتعرف أسماء على والدتها وأختها في وقت مناسب لها. وشجعتها قائلة بأنها سوف تستردّ ذكرياتها الماضية في بوسطن.

وجاء في هذه الرسالة أيضاً أن الباب فتح لريمون ليعرف أين يضع غانم هجرس أمواله بعد حريق المصرف. فلقد شاهده صدفة في زيارة له إلى المطعم، غانم كان يتردد على ذلك المطعم، فأرسل إلى أسماء يستدعيها، علّ هذا الرجل الذي شاهده هو غانم وليس رجلاً آخر شبيهاً به. فجاءت وكمنت في المطبخ ورأته من فرجة وتأكد لديها أنه هو لا شك في ذلك أبداً. فاستعان برفاقه في بوسطن للتجسس على تحركاته، وكانت عليه شكاوى من أصحاب بيوت اشتراها من أصحابها والعملة منهارة، فما كانت تفي بشراء أخرى بديلة لها عندما ترتفع فجأة أسعارها. وكانت عليه تهمة بأنه يتلاعب بالبورصة برأه منها قاض أفسده بالمال الذي يغدقه عليه، وهذا القاضي نفسه هو الذي أنقذه يوم اتهمه أنطون بحرق المصرف. كان لريمون أصدقاء أوفياء، ذوي مكانة مرموقة في مجتمع بوسطن، بالرغم أن قادة المجتمع في نيويورك أقالوه من عمله حين انتشر كتابه الذي ينتقد سياستهم في الشرق الأوسط بأنها انحرفت عن المبادئ السامية التي كانت لهم سابقاً، حتى أن أخلص أصدقائهم تخلوا عنهم بعد أن كانوا يزحفون لإرضائهم. لقد لاحظ المصرفي، الذي كان صديقاً حميماً لريمون، أن غانم هجرس في كل شكوى عليه كان يسحب من ماله في يوم المحاكمة رقماً مماثلاً لما يودع في حساب القاضي الفاسد فيبرّئه، وتكرر هذا الأمر في عدد من المحاكمات. وكان هذا دليلاً هاماً لتواطئهما معاً ضد المدّعين عليه، ولكنها ليست دليلاً كافياً لإدانتهما معاً بالتواطؤ في قضية حرق المصرف، أو في اغتيال المصرفي زوج نبيلة.

عاد ريمون إلى نيويورك وذهب على الفور إلى مكتب هشام ليخبره عن وجود غانم هجرس في بوسطن مداناً بقضايا فرعية، وعن القاضي المرتشي الذي أبرأه من تهمة حرق المصرف عندما اتهمه أنطون بأنه هو الفاعل بعد أن أفرغه من الأموال، وأعاد إليه الاعتبار كنائب للريف له الحصانة الدبلوماسية. وأن أموال المصرف يودعها في مصرف في بوسطن يتعامل مع الممنوعات في الشرق الأوسط. قال لهشام:

- عليك أن تتدبر أمرك بما لك من خبرة قانونية في استرداد الأموال التي نهبها من المصرف، وأدت إلى اغتيال مدير المصرف، المرحوم زوج نبيلة، وأنا سأكون عوناً لك فيما يتعلق بمعلومات سرّية عن هذا المصرف!

تذكرت بعد قراءتي للرسالة أن صراعاً وحشياً كان يقوم بين غانم وأخوي داليا اللذين قاما بحرق المصرف. يوم قتلت داليا كنت قد ذهبت مع أسماء وجلال لوداع والدها في الجبل وسمعنا ضجة في الخارج فخرجنا إلى الشرفة وشاهدنا أخاها أسعد في ساحة البيت يتعارك وغانم. وكانت هناك سيارة مصح خرج منها ممرضان جرّا أم داليا بعد أن طوقاها بقميص المجانين وكانت تصيح وهما يحشرانها في السيارة:

- أنا المجنونة أم أنت يا غانم السافل الذي قتلت ابنتي!

وكان غانم يحاول أن يهدئ أسعد الذي انقض عليه كالوحش الكاسر ويقول:

- اهدأ يا أسعد. هل يمكنني أن أترك امرأة عجوزاً خرفة تسوّئ سمعتي في البلدة وأنا نائب فيها؟ هل يمكن أن أكون قتلت

زوجتي وأنا الذي كتبت لها نصف ثروتي والبيت الذي أسكنه لتكون مطمئنة على مستقبلها بعدي؟ إجرينا بالفلقة سوا يا مجنون! شو نسيت؟ عميان على قلبك!

عندما رجعنا من الشرفة إلى غرفة الاستقبال بعد ذلك المشهد سألني الطبيب والد أسماء:

- أنت محامية يا نبيلة وتعرفين القوانين أفضل مني. هل يمكن لغانم أن يسترد ما وهبه لداليا بعد موتها؟

قلت: - لا، إذا كان موثقاً عند كاتب العدل حسب الأصول فهو يصبح ملك ورثتها.

قالت أسماء: - إذاً إذا كانت داليا قد وهبت الثروة لأحد فلا يمكن أن يستردها منه.

فقلت: - على كل حال، أنا واثقة أن غانم ليس هو الذي قتل داليا، بل الذي قتلها هو الذي حرمها من الإنجاب من أجل الثروة التي أوصى بها غانم لزوجته حين هددته بالانفصال عنه. لقد تنبأت بأن داليا في خطر قبل أن يقع الحادث لها. وهي كانت تعرف من قتلها حين جاءت الشرطة تحقق معها قبل أن تصاب بالغيبوبة. أجابت حين سئلت بأنها تشك بابن أخي غانم هجرس الطبيب الذي تعمد أن يفقدها القدرة على الإنجاب باستئصال مبيضيها السليمين وادّعى أن الكتلة الدهنية التي كانت تشكو منها كانت سرطانية. وأخذت الشرطة تبحث عنه في القرية، ولكنه اختفى فجأة، ولا أحد يعرف مكانه. لقد قتلها بعد أن علم بالوصية التي أوصى بها غانم لداليا بأن ترث نصف ثروته والبيت الذي تسكنه بعد مماته. والوصية الموثقة كانت نسخة منها عند أمها ونسخة أخرى عندي أحفظها.

مرّ شهر قبل أن يزورني والد أسماء ليخبرني أن الشرطة قبضت على قاتل داليا وأن من وشى به هو أخو داليا، أسعد. وكان أول من حضر محاكمته هو الطبيب الذي فحص مبيضي داليا ووجدهما سليمين، وتقريره الذي يحتفظ المستشفى به وُجد في مكانه، فقدمه للمحكمة، مما أكّد قيام ابن أخي هجرس بعملية اغتيال داليا. ففرحت كثيراً لهذا الخبر، لأنه أعتقني من رغبتي في ملاحقة غانم كما كنت أرغب فنصحني والد أسماء أن أمتنع عن التصدي له لأنه أصبح ذا نفوذ كبير في مجالات كثيرة، سياسية واقتصادية، وثروته تتضاعف يوماً بعد يوم. وأظن أنه خطر ببالي أن غانم هجرس هو الذي حرّض أسعد أن يشي بالطبيب للسلطات، لينفي تهمة الاغتيال عن نفسه.

*****

يوم حار من أواخر حزيران؛ تعود نورا حاملة نتائجها المدرسية، إنها المرحلة التي تنتهي فيها المرحلة الإعدادية إلى المرحلة الثانوية، وكانت نتائجها متميزة في جميع المواد ما عدا الرياضيات. أما جهاد فكان متفوقاً في كل المواضيع، وجاء مع جهينة وعبد الرحمن ليهنئوني بنجاح نورا. وأمضينا نهاراً حافلاً، وقمت وجهينة بإعداد طعام شهي للمناسبة.

رن جرس الباب فذهبت نورا تفتحه وإذا بها ترى بأن القادم هو ريمون ومعه جولييت وابنتهما الحلوة لوسيا. أدخلتهم غرفة الاستقبال وهرعت إليّ في المطبخ. فغسلت يدي وخلعت عني ميدعتي والطاقية التي تحمي شعري لاستقبالهم بعد طول غياب. حملت لوسيا وقبلتها وقلت:

- ما أحلى ابنتك يا جولييت! ستكون في صباها حلم العشاق!

قال ريمون ضاحكاً:

- منذ الآن لها عاشق هو ابن أخيك كريم، جلال.

- هل تعرفتم عليه في نيويورك؟

- صدفة في أفخم مستشفى في نيويورك، هو مديره وكبير الأطباء فيه. ما كنت أعلم بأنه كان زوجاً سابقاً لابنة نقيب أطباء نيويورك وله منها صبيان حين حضرت عرسه مع أسماء في فندق سان جورج في لبنان.

أخرج من جيبه رسالة وتابع:

- إنها من هشام، لقد طلب مني أن أوصلها إليك بعد أن عرف أني مسافر إلى لبنان، لقد أعادوني إلى منصبي لأني الوحيد الذي يعرف بخبرته الطويلة المشاكل المتعلقة بلبنان. لقد قرأ هشام الرسالة علي قبل أن يعطيني إياها لأوصلها إليك، إنه يطلب منك الانتقال مع نورا إلى نيويورك على الفور قبل استفحال الأزمة في لبنان. وسأساعدك في الحصول على فيزا من السفارة هنا، فخذي معك ما خفّ وغلا فأنت لا تعلمين كيف تتطور الأمور في البلاد.

ولما طلبت من ريمون وجولييت البقاء لنتغدى معاً قال ريمون بأنه مدعو من السفارة لاجتماع عاجل، لكنه أضاف:

- ولكني سأكون برفقتك حتى أؤمن وصولك إلى نيويورك بسلام.

خيم جو من الحزن بعد مغادرة ريمون وأسرته، وكانت تعابير الأسى تظهر على وجوه عبد الرحمن وجهينة وجهاد لفراقي ونورا، وأحسست أنني سأودعهم الوداع الأخير، وأنني سأغادر مهاجرة إلى بلد لا يربطني به شيء تاركة في بيتي ذكرياتي بحلوها ومرّها.

أهديت السيارة الأرجوانية، هدية نورا من والدها الحبيب في عيد ميلادها قبيل مقتله، والدها الذي تحبه ولا تدري سرّ تخليه عنا، وأملت في لقائه في نيويورك وهي لا تدري أنها ستذهب إلى محاكمة من قتله، غانم هجرس، وأسلمت عبد الرحمن مفتاح المنزل حتى يتردد لسقاية حديقته. وكان علي أيضاً أن أهيئ نورا للخبر الذي كتمته عنها طويلاً حتى لا أجرح مشاعرها الطفولية بشعور اليتم.

استطاع هشام بعد أن عرّفه ريمون على المكان المتواجد فيه غانم أن يشن هجوم ساحق عليه، فحوّل المحاكمات الفرعية التي كان يخرج منها بريئاً بسبب فساد القاضي المرتشي إلى الادعاء عليه بأنه هو الرجل نفسه الذي اتهمه أنطون بحرق المصرف بعد أن أفرغه من أموال الناس، وأن تكاثر المال لديه حين أصبح نائباً للريف كان بسبب سيطرته على هذه الأموال، التي كانت مودعة في مصرف الأمير الراحل والد نورا، والاستفادة منها ببناء المشاريع الاقتصادية. ولقد استطاع هشام بما أوتي من حنكة واستقامة حجز غانم هجرس في السجن، باتهامه برشوة القاضي الفاسد، وبالتلاعب بالبورصة وبشراء منازل في بوسطن لمخدوعين بالعملة المنخفضة في حينها، ثم ارتفاع أسعارها بعد فترة وجيزة، فترك أسراً كثيرة في العراء دون ملجأ كالغجر الذين يلتحفون السماء. وأضاف هشام إلى هذه الاتهامات التي أقالت القاضي الفاسد وأودعته هو وغانم هجرس السجن ادعاءً آخر وهو قتل غانم لمدير المصرف زوج نبيلة الذي تزوجها بعد أن طلق أخت غانم وأرسلها إلى أهلها. فما كان من غانم هجرس إلا أن قام بقتله حتى لا يحاسب على الأموال التي نهبها من المصرف قبل حرقه على يدي أخوي داليا.

كانت محاكمة رائعة أدانت غانم هجرس بالإعدام، وبما أن القوانين الأميركية في بوسطن وولاية مساتشوستس حرّمت عقوبة الإعدام على الكرسي الكهربائي التي كانت متبعة سابقاً فإنه عوقب بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة. وأفرج عن أموال المصرف الذي احترق، وأسلمت إدارة أمواله إلى هشام الذي أعاد الأموال المودعة فيه إلى أصحابها، فكان ما بقي منها يقل بكثير عن قيمة المشروعات التي نمت بفضلها.

لقد علمت نورا من صحف بوسطن التي كانت تصل إلى منزل هشام نبأ مقتل والدها منذ عيد ميلادها الذي أهداها فيه السيارة الخمرية، فبكت وغفرت لوالدتها أنها أخفت ذلك عنها. لقد نضجت اليوم وأصبحت عواطفها، في سن المراهقة العاصفة بأحلام الحب لوسيم، يغلب الفرح بلقائه فيها حزنها على والدها. إن أمامها مستقبل باهر في أن تنتمي إلى وسط عالم الطب الذي سوف تمتهنه، وسوف يكون حبها لوسيم قادراً على التغلب على خيبة أملها فيه كونه ابن لداليا وأن عمها كريم والده. ستنتظر حتى الثامنة عشرة من عمرها لتكون له الزوجة الوفية، وتنجب منه من الأبناء والبنات من هم في وسامة آل عباد وجمال بنات ليديا.

أما الثروة التي آلت لوسيم فلم يدر بها وسيم ولا نورا، ولقد تضاعفت بالمشروعات التي قام بها غانم هجرس. فوزع قسم منها على المتضررين من منازلهم التي باعوها بعملة بخست قيمتها، فعوضوا بمبلغ يستطيعون به شراء منازل مماثلة لها، وآل قسم من الباقي لوسيم، كما طوّر بقسم آخر منها المشفى بالآليات الحديثة التي تنقصه. وقد طلب من هشام أن يديره مالياً ولكن هشام كان غير راغب في مغادرة نيويورك لقربه من أسرته التي نشأ بين أفرادها. وبقي المنزل الذي أوصى به غانم هجرس لزوجته ليديا مقفلاً ليكون في المستقبل مكاناً للاصطياف في لبنان.